سأصبح معلمة ... لا أريد أن أصبح معلمة!

سهى محمد النتشة

سهى محمد النتشة

ما أجمل أن يرسم الإنسان لنفسه جناحين ويحلق بهما في الزمن، ولكن ليس في الزمن القادم، بل في الذي مضى، مضى وحملنا كومة من الذكريات التي سأحط بجناحي على بعض محطات التعليم منها، منذ نعومة أظافري وحتى الآن. إنه لشعور جميل يداعب جوارحي حين أرى صور ذكرياتي المتحركة في ذهني، التي لم أنسها، وأتمنى أن لا يجوبها النسيان ولا تمحى.

تلك الصغيرة ذات السنوات الأربع، التي ذهبت مع أمها إلى ما يسمى بالروضة للالتحاق بها، أول شيء وقعت عليه نظراتها الألوان الكثيرة، والألعاب في الروضة، التي فرحت لرؤيتها، واعتقدت أنها ستلهو بها كثيراً وتمرح ... جاءت المعلمة، وقالت: أهلاً وسهلاً، هل تريدين تسجيل الأمّورة؟ قالت أمي: نعم. كم عمرها؟ سالت المعلمة. أربع سنوات تقريباً، أجابت أمي. أربع سنوات، إنها صغيرة، أحضريها العام المقبل، وقدمت لي حبتين من الملبس الذي أحبه كثيراً، ولكن أريد أن أركب المرجوحة، وأريد أن ألهو بالألعاب يا أمي، قالت المعلمة: دعيها تلعب لا باس. ركبت كل الألعاب، ولهوت، وفرحت، وأمي تتحدث مع المعلمات وضحكاتهن تدخل إلى أذني: آه كل شي جميل في الروضة، متى تأتي السنة المقبلة؟!

لقد جاءت، ولكن تأخرت أمي قليلاً عن موعد التسجيل، وأخذتني في أول يوم دراسي للمدارس ورياض الأطفال. أهلاً وسهلاً مرة أخرى قالت المعلمة، تفضلي. آسفة، انشغلت قليلاً عن الحضور في موعد التسجيل وجئت اليوم. في الحقيقة لقد اكتمل العدد تقريباً، ولكن كم عمر الأمّورة؟ الكلام نفسه سمعته العام السابق، خمس سنوات. ما تاريخ ميلادها؟ اسمعي، أريد أن أفيدك، لقد أدخلوا مواليد شهر عشرة ضمن قائمة الالتحاق بالصف الأول، يمكنك تسجيلها في المدرسة، ستكسب سنة. حسناً، ومرة أخرى حبتين من الملبس وبقيت لبعض الوقت ولعبت في الألعاب ... كل شيء جميل ... أمي: سألت: هل المدرسة جميلة مثل الروضة، أقصد هل يوجد فيها ألعاب والوان؟ نعم حبيبتي، يوجد، سوف تنبسطين فيها كثيراً.

لم أنس هذين اليومين الجميلين اللذين رسما لي صورة جميلة عن المدرسة والتعليم ... دفعة جيدة للمستقبل مع بساطة الأحداث.

مس زينب أول معلمة وأول اسم دخل أذني، أحبها رغم أنني لا أذكر سوى القليل من الصف الأول، هي التي كانت تلاعبنا الرياضة، ودائماً تحضنني وتلعب بجدولتي الطويلة. لا أنسى نظرات الحب التي كانت تشع من عينيها تجاهي، رغم أنني في البداية لم أكن من المميزات، ولم أكن أعرف الحروف كباقي طالبات الصف، وعندما سألتني، لم تأخذيها في الروضة؟ قلت لم أدخل روضة. مش مهم: قالت. ستتعلمينها في الصف الأول ... «أنت شطورة» ... دفعة أخرى للأمام، ليتني التقي بك حبيبتي مس زينب أين أنت؟! صدقاً أتمنى ذلك لو يحدث اليوم.

الصف الثالث ... ماذا تقرئين؟ سألت أختي في الصف الخامس،

إنجليزي، لا نتعلم مثل هذا في الصف، في الخامس سوف تتعلمين، ما هذه الكلمة؟ ... وهذه؟ ... وهذه؟ «لسه ما تعلمناهم كلهم خلص أسئلة». ذهبت ألعب مع الأطفال: اسمعوا أنا بحكي إنجليزي، طيب احكي لنشوف، بدأت أطلق كلمات بلا معنى، وأصوات وحروف طبعاً كلها من تأليف خيالي، ولا تمت للإنجليزية بصلة. ذهب أحد الأطفال وأخبر الآخرين أنني أتكلم الإنجليزية، جاءوا ليسمعوا واستمريت بالخربشة، ماذا تعني هذه؟ إممم يعني صباح الخير ... وهذه: مرحباً ... هههههه! تأليف الإنجليزي سهل، قلت في نفسي، لماذا لا يفعل الآخرون هذا؟

أين مس سها؟ سال أبي أمي، أنا هنا أبي، أنا مس؟ نعم، ستصبحين معلمة. فرحت كثيراً سأصبح معلمة.

لا أذكر اسم تلك المعلمة التي كانت تضرب البنات كثيراً في الصف الثالث، كانت تشد شعرهن وتلفهن كالدمية. كنت أتألم عليهن، أظن أن هذا موجع لا أذكر أنه حدث معي وشدت شعري، كنت جيدة في مادة العربي، ومعلمة الرياضيات تلك المعلمة في الصف السادس التي كانت تضربنا عشر عصي على الحل ... لماذا تضربني أنا؟ لم أحل الواجب لأنني لم أفهم أسئلة الرياضيات ... تألمت كثيراً من العصا، احمرت يداي، كان الجو بارداً، ومع الضرب لم أعد أشعر بالبرد بل بالوجع ... في المرة القادمة عندما تعطيني واجباً، سوف أغيب عن المدرسة، أنا لا أتحمل عشر عصي، مؤلم جداً ... أنا لا أحب الرياضيات أصلاً، ولا مس ... .

هآنذا في الصف الثامن ... جاءت معلمة اللغة الإنجليزية، وبدأت تشرح الدرس، أذكر أن الدرس كان عن المتاحف ... لم نكن نهتم بمادة الإنجليزي كثيراً، لأن المعلمة أصلاً كان معظم كلامها بالإنجليزية، وتترجم أيضاً بالإنجليزية، ولم نكن نفهم منها الكثير، لذلك لم تكن تشدنا الحصص. في تلك الحصة، نظرت إلي وسألتني بالإنجليزية: لماذا يذهب الناس إلى المتاحف؟ لم أفهم السؤال ... كررته مرات عدة، وقلت لها لم أفهم السؤال. وللمرة الأولى تسألني بالعربية: لماذا يذهب الناس إلى المتاحف؟ «عشان يتفرجوا عليها»، فردت «عشان يتفرجوا على جمالك» ... خجلت كثيراً من ردة فعلها، وتأثرت كثيراً بهذا الكلام ... وقلت في داخلي «طب لشو بروحو مش عشان يتفرجوا عليها، ليش جوابي خطأ؟». حتى الآن لا أعرف ما كان جواب ذلك السؤال في تلك الحصة ... ولكن تلك الحادثة جعلتني أغير نظرتي للإنجليزية، وأصبح لدي إصرار على تعلمها لكي أستطيع المشاركة في الصف ... فأحضرت لي أختي كتاب تعلم الإنجليزية وأشرطة سماعية وأخذت أتعلمها بجد، حتى حفظت معظم الكتاب، ثم أخذت أنسخ كل ما يقع تحت عيني لتحسين كتابتي وخطي في هذه اللغة الصعبة ... وبعد سنتين أصبحت الأولى في الإنجليزية والصف أيضاً، وأصبحت من الطالبات اللواتي يكرمن سنوياً في المدرسة لتفوقهن الدراسي. جملة أثرت في نفسيتي وغيرت شخصيتي للأحسن من ناحية التفوق، وللأسوأ من ناحية أخرى، وهي أنني لم أعد أريد أن أصبح معلمة ... «انتبهوا، الكلام كثيراً ما يغير إلى الأسوأ، وبخاصة إذا مس الجوارح والمشاعر عند الكثير من الناس».

وصلت إلى التوجيهي وكل الآمال منصبة علي. سألت معلم العربية: هل سبق وحصل أحدهم على ممتاز في التوجيهي؟ المعلم: لا. هل أستطيع؟ المعلم: لا أعرف. ... ولكن الطالبة في التوجيهي العام الماضي كانت متفوقة أكثر ولم تحصل على امتياز. ... أنت حاولي. المدير: تستطيعين، لا أريد منك أكثر من 90 بالمائة. ... حاضر سأحاول. وفعلاً حصلت على معدل ممتاز، وأخبرتني أمي التي ذهبت إلى التربية لإحضار شهادتي يوم النتائج أن المدير كان يرقص فرحاً بنتيجتي وكأنه هو من تقدم للامتحان وحصل على النتيجة. يوم جميل واحتفال كبير، ما أجمل ثمرة النجاح حين تنضج، حلاوة وطعم آخر، فرحة لا توصف ... .

في الحقيقة، أيام الثانوية كانت جميلة وأكثر احتراماً للطالب. لم تكن تلك الألفاظ وتلك العصي تستخدم في هذه المرحلة. عدا عن أن المدرسة كانت مختلطة، وكان المعلمون يعملون جاهدين على تفادي أي إحراج لكلا الجنسين من الطلاب. تحسنت نظرتي للتعليم والمعلمين، ولكن لم تغير رأيي في عدم دخول مجال التربية والتعليم. ولكنني ما زلت أذكر المعلمين يوسف ورمضان اللذين كانا أفضل معلمين وأخلصهم في العطاء وفهم المادة التي يعلمانها.

حان وقت الجامعة، وكما قلت سابقاً لم أعد أريد أن أصبح معلمة. ماذا اصبح؟ اخترت تخصص التجارة، وأمضيت فيه سنة، ولكنه لم يشدني، وقررت أن أغيره. وأنا أفكر قلت في نفسي أنني أحب اللغات. إذاً سأختار تخصص اللغة الإنجليزية، ولكن ليس لأصبح معلمة، بل لأعمل في مجال الترجمة، أو أي شيء له علاقة باللغة. وفعلاً دخلت التخصص، والغريب أنني في بداية السنة الثانية جاءني اتصال بأنهم يريدون بديلة معلمة إنجليزية، وأنهم يريدونني أن أذهب للتدريس لمدة 3 أشهر لعدم وجود معلمات ... ليس هذا ما أريده، ولكن سأذهب لأقوي نفسي في اللغة وأمارسها ... كلها 3 أشهر.

لم تكن تجربة سيئة، بل كانت جميلة، وحاولت عدم اللجوء إلى الأساليب التي كنت أكرهها أيام كنت طالبة. ثم أخبرتني صديقتي أن نذهب للتقدم لمدرسة خاصة بحاجة إلى معلمات، وبخاصة أن

لدينا مادة عملية يجب أن ننجزها في المدارس ... تقدمت لتلك المدرسة وتم قبولي، ويا ليتهم لم يقبلوا الطلب ... هذه مدرسة أم ماذا؟! لم تكن مرافق المدرسة صحية جداً للطلاب؛ ثلاث غرف ومطبخ هن غرف صفية من الأول وحتى الرابع. الصف الرابع في المطبخ، ما هذا؟ هذا مؤقت حتى يجهز مبنى المدرسة الجديد – أجابت المديرة. حسناً، ولكن رائحة المصرف في المطبخ فظيعة ... سأخبر أحداً ليصلحه. أين الإنسانية في التعامل مع الأطفال؟ كل هذا تم تجاوزه، ولكن ذلك اليوم وتلك الحادثة أحدثت شرخاً كبيراً في قلبي ومشاعري. فبينما كنت في غرفة الصف الثاني، وإذ بصوت صراخ يعلو ويعلو، عرفته، إنه صوت أحمد من الثالث. خرجت لأرى ماذا يحدث، وإذ بمديرة المدرسة تنهال عليه بالضرب بيديها وقدميها. أسرعت لأبعدها عنه، فإذا به يتعلق بي ويحضنني ويبكي ... «ها آنذا أبكي ثانية لهذه الحادثة» ... لم أرَ في حياتي ضرباً كهذا، صورة الدماء من فهمه وأنفه وهي تسيل على قميصي ... موقف صعب. لماذا؟ ألأنه من ذوي الحاجات الخاصة العقلية، ولا يستطيع الدفاع عن نفسه أو إخبار أهله بما حدث، تتمادين في ضربه؟! قلت للمديرة. لا، هذه الجروح من قبل. لقد رأيتك، حتى يداي تأذت من ضربك. لا تبالغي، يستاهل، لا يريد أن يهدأ؟! هؤلاء الأطفال أمانة عندك يجب عليك المحافظة عليهم ومعاملتهم بإنساني.

لم أنم تلك الليلة وأنا افكر في الموقف، ما الذي دفعها إلى فعل ذلك مع هذا الطفل؟ هو ليس كباقي الأطفال، لدية مشكلة في النمو العقلي لا يستوعب من الضرب أو غيره ... من أين أتت تلك الوحشية ... كانت عيناي تدمعان وقلبي يعتصر ألماً كلما عادت صورة الحادثة إلى ذاكرتي. أرقني ذلك الموقف، وقررت ترك العمل في المدرسة. وفي اليوم التالي، ذهبت الساعة التاسعة، وكالعادة لماذا تأخرت؟ سألتني المديرة. أنا لم أتأخر، لقد أحضرت لك كتبك ولن أدرّس بعد اليوم. لماذا؟ لم أعد أريد العمل في هذه المدرسة ... حاولت جاهدة أن تقنعني بالبقاء وعدم المبالغة في الموقف، ولكن لم تنجح في ذلك ... سألت نفسي: هده مربية ومعلمة أم حاكم وجلاد؟!

وفي أحد الأيام قرأت إعلاناً في الجامعة عن مشروع بحث ميداني لقرى غرب رام الله، من ضمنهم قريتنا. تقدمت للبحث، وتم اختياري، وأمضينا في البحث 3 أشهر، وبعد ذلك تمت طباعة كتاب يحمل جميع الأبحاث قدم في احتفال جميل ومكافأة مالية. شعور جميل أن تنجز عملاً وتنجح فيه. أحببت مجال العمل المجتمعي، والمشاريع، وبعد تحرجي تقدمت للمؤسسة نفسها بطلب العمل، وبعد شهرين جاءني القبول، وأمضيت تقريباً ست سنوات وأنا أعمل منسقة مشاريع. كان عملاً ممتعاً جداً وجميلاً، وبخاصة أنه فتح أمامي العديد من الأبواب، والتعامل مع العديد من الجنسيات والأشخاص، والتعرف على العديد من الأماكن والدول. ولكن عادت بي الذاكرة إلى الوراء، وتذكرت جملة أبي «مس سها»، كان يرددها كثيراً، تذكرتها عندما أخبرتني صديقتي البلجيكية أنها تريد ترك العمل، والبدء للعمل مدرسة للأطفال، لأنها تحب الأطفال. قلت في قرارة نفسي وأنا أحب الأطفال أيضاً، ويجب ألا تكون بعض النماذج صورة عن كل الواقع، سأصبح معلمة كمس زينب، وكما يريدني أبي.

وفي الحقيقة، فكرت أن مهنة التعليم ستكون مناسبة جداً لي عندما أصبح أماً. وها أنا الآن أعمل معلمة منذ أربع سنوات، وكل سنة يزداد حبي للمهنة، وتزداد دافعيتي للعطاء، وبخاصة أنني أتعلم في كل يوم أسلوباً جديداً في التعليم أفضل من ذي قبل، وأقارن بين احتياجات الطلاب، ولا أخفيكم أنني استفدت كثيراً من مؤسسة عبد المحسن القطان في التعليم، واستخدام الدراما، والتعليم التكاملي، ... وغيرها من الأساليب التي اكتسبتها من الدورات التي تقدمها هذه المؤسسة، والتي تعنى بتطوير المعلمين في المدارس.

لقد تعلمت من كل تجاربي التعليمية والاجتماعية أن أتمسك بما هو إيجابي ومفيد من دروس، أما غير الإيجابي، فقد تعلمت إسقاطه من سلة معاريفي بعد أخذ العبرة منه. ولا يسعني إلا أن أشكر مؤسسة القطان، التي أتاحت لي هذا الفضاء كي أنقل تلك التجارب من ذاكرتي إلى الواقع.

مدرسة بنات رافات الثانوية

طالبات مدرسة بنات رافات الأساسية تعملان على تنفيذ مجسم فني ضمن مشروع أطفال الشمس مع الفنانة دينيث ودارتشيج من سيريكلانكا.